مفهوم الأنفس، والآفاق في المنظور القرآني ودوره في تعزيز مسار الاستقرار والرفاه - دراسة تحليلية-

The concept of “souls” and “horizons” in the Qur'anic perspective and its role in promoting stability and well-being -An Analytical Study-

م.د. بشرى سعيد عبد المجيد حمد

ديوان الوقف السني / دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

bushra.saeed2021@gmail.com

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهومي **الأنفس، والآفاق**" كما وردا في القرآن الكريم، وتحليل دلالاتهما العميقة والمتكاملة. يرتكز البحث على فهم أن القرآن يقدم نموذجًا فريدًا يربط بين الذات الإنسانية (الأنفس) والعالم الخارجي المحيط بها (الآفاق)، ويُبرز أن الانسجام بينهما هو مفتاح تحقيق **الاستقرار والرفاه** على الصعيدين الفردي والمجتمعي. ستعتمد الدراسة منهجًا تحليليًا لمجموعة من الآيات القرآنية ذات الصلة، مع الاستعانة ببعض التفاسير المعتبرة والنظريات الحديثة في علم النفس والاجتماع، لتسليط الضوء على الأبعاد المعرفية، الأخلاقية، والعملية لهذا المفهوم القرآني في بناء حضارة مستقرة ومزدهرة.

الكلمات المفتاحية: " الأنفس، الآفاق، الاستقرار، المنظور القرآني"

Abstract

This research aims to study the concepts of "self" and "horizons" as they appear in the Holy Quran, and to analyze their profound and integrated connotations. The research is based on the understanding that the Quran presents a unique model that links the human self (self) with the surrounding external world (horizons), highlighting that harmony between them is key to achieving stability and well-being at both the individual and societal levels. The study will adopt an analytical approach to a group of relevant Quranic verses, drawing on some respected interpretations and modern theories in psychology and sociology, to shed light on the cognitive, ethical, and practical dimensions of this Quranic concept in building a stable and prosperous civilization.

Keywords: ((self, horizons, stability, Quranic perspective)).

المقدمة

إن القرآن الكريم، بصفته هدى ونورًا للبشرية، لا يقتصر على بيان الأحكام التشريعية فحسب، بل يتجاوز ذلك ليقدم منظومة معرفية شاملة تُعنى بالإنسان والكون. ومن أبرز المفاهيم التي تُجسّد هذا الشمول، مفهومي "**الأنفس**" و"**الآفاق**" ، هذان المفهومان، اللذان وردا في آيات متعددة، لا يمثلان مجرد وصف للعالم الداخلي والخارجي، بل يُشكلان أساسًا لفهم العلاقة الجدلية بين الإنسان ووجوده، وبين الفرد والمجتمع، وبين الإنسان وخالقه.

❖ **أهمية البحث:**

تُظهر الدراسات القرآنية أن العناية بالذات الإنسانية "الأنفس" وتزكيتها، وتأمل الكون المحيط بها "الآفاق" وتسخيره، هما مساران متوازيان ومتكاملان. هذا التكامل ليس غاية بحد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق أهداف أسمى تتمثل في **الاستقرار والرفاه**؛ وهما الركيزتان الأساسيتان لأي نهضة حضارية تُسهم في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

❖ **أهداف البحث:**

يهدف هذا البحث إلى تفكيك مفهومي "الأنفس" و"الآفاق" من منظور قرآني، وتحليل كيفية تفاعلهما لتحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي، والرفاه المادي والروحي. كما سيسعى لتوضيح الدور العملي لهذه المفاهيم في بناء مجتمعات قوية ومزدهرة، مستعينًا بالقرآن مصدرًا أول، وبالتفسيرات التي تُجلي معانيه، وبالنظريات المعاصرة التي تُعزز فهمنا لهذه العلاقة.

❖ **مشكلة البحث:**

تكمن المشكلة الرئيسية في كيفية إدراك العلاقة التكاملية بين "الأنفس" (ما يخص الإنسان داخليًا) و "الآفاق" (العالم الخارجي المحيط به) من منظور القرآن الكريم.

❖ **أما سبب اختيار الموضوع:**

فيعود إلى أهميته في تقديم إطار معرفي شامل للإنسان وعلاقته بالكون، ودوره في تحقيق السعادة الفردية والمجتمعية، عبر المنظور القرآني.

❖ **منهجية البحث:**

وقد اتبعت المنهج التحليلي في استنطاق النصوص مستندة إلى الآيات القرآنية ، وكتب التفسير، وعلوم القرآن؛ لإظهار الجديد إلى القارئ عبر مفهوم الأنفس، والآفاق في المنظور القرآني ودوره في تعزيز مسار الاستقرار والرفاه.

❖ **خطة الدراسة:**

وقد اقتضت أن تقوم هذه الدراسة على المباحث الآتية:

- المبحث الأول: مفهوم الأنفس والاستقرار في المنظور القرآني
- المبحث الثاني: مفهوم "الآفاق" في المنظور القرآني
- المبحث الثالث: التكامل بين "الأنفس" و"الآفاق" ودوره في تعزيز الاستقرار والرفاه.

المبحث الأول
مفهوم الأنفس والاستقرار في المنظور القرآني

والأنفس في اللغة : "ن ف س: النَّفْسُ الرُّوحُ، يُقَالُ: خَرَجَتْ نَفْسُهُ.... وَ نَفْسُ الشَّيْءِ عَيْنُهُ يُؤَكَّدُ بِهِ، يُقَالُ: رَأَيْتُ فُلَانًا نَفْسَهُ وَجَاءَنِي بِنَفْسِهِ".[1]

يُشير مصطلح "الأنفس" في القرآن الكريم إلى الذات الإنسانية بكل أبعادها الروحية، العقلية، والنفسية، وحتى الجسدية، وإن القرآن يُولي عناية فائقة بالنفس البشرية، ويُقدمها ككيان معقد ومتكامل، يستمد قيمته من نفخة الروح الإلهية، ويُناط به التكليف والمسؤولية، وفي هذا المبحث لابد من الإشارة إلى الآتي:

([1])مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص٣١٦.

١. دلالات الأنفس في القرآن الكريم:

- **الجانب الروحي والنفسي** :القرآن يُبرز الجانب الروحي والنفسي للأنفس كمركز للمعرفة، الإيمان، والضمير. يقول تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"[١].

وهذه الآية تُشير إلى فطرة النفس وقدرتها على التمييز بين الخير والشر، وإلى مسؤوليتها عن اختياراتها، ومن سماتها المشقة أيضا[٢]

- **مركز الإرادة والمسؤولية** :الأنفس هي مركز الإرادة الحرة والقرار، والإنسان مسؤول عن أفعاله وعن ما يُكسبه لنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[٣]، إن هذه المسؤولية الفردية هي حجر الزاوية في بناء الشخصية المتوازنة.
- **موضع التزكية والتطهير** :يُشدد القرآن على أهمية تزكية النفس وتطهيرها من الآثام والعيوب كسبيل للفلاح والسعادة. قَالَ تَعَالَىٰ:أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [٤].

فالتزكية تعني تنقية القلب من العلل والأمراض، وتنمية الصفات والأخلاق الحميدة، معنى "قد أفلح من زكاها" فقد فاز وسعد من أصلح الله نفسه وهداه. فمن يصلحه الله، فقد أدرك النجاح والفلاح، "وقد خاب من دساها": هلك وشقي من أهمله الله فأفسد نفسه. فمن يشقيه الله، فقد خسر وخابت مساعيه. ، [٥]،وسبل التجاوز: تعزيز الصبر، الحلم، اليقين بأن

([١])(الشمس: ٧-٨).

([٢])تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ(المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، ص٢٤٠.

([٣])المدثر: ٣٨.

([٤])(الشمس: ٩-١٠)

([٥])ت وقيل: " يعني قد أسعدها الله يعني أصلحها الله- تعالى-، فإنه من أصلحه الله فقد أفلح وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها- ١٠- يعني وقد هلك من أشقاه الله- عز وجل-"فسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل

الهداية من الله، وتذكر الأجر العظيم للمحتسبين. التزود بالعلوم الشرعية والنفسية التي تُعين على ضبط النفس [١].

- **الضعف والقوة:** يُقر القرآن بضعف النفس البشرية وهشاشتها أمام الشهوات والشبهات، ولكن في الوقت نفسه يُبرز قدرتها على الصعود والارتقاء إذا ما استعانت بالله وتمسكت بالهدى[٢]، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[٣] ، والغاية من الآية تسهيل الزواج الزواج من الإماء؛ إذ سمح الله بالزواج من الفتيات المؤمنات (الإماء) لمن لا يستطيع الزواج من الحرائر، وذلك للتخفيف عليهم، والسبب وراء تيسير هذا الإذن جاء مراعاةً لضعف الإنسان وعدم قدرته على مقاومة شهواته، فمن لم يجد سبيلاً للزواج من امرأة حرة، وخشي الوقوع في الحرام، أبيح له الزواج من الأمة، حتى لا يقع في الفتنة بسبب قلة صبره. [٤]، وقابله بأحسن تقويم فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [٥].

بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط١ – ١٤٢٣ هـ، ج٤، ص٧١١.

[١] ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢: ٢٣/٢.

[٢] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ، ص ٦٥.

[٣](النساء: ٢٨).

[٤]وقال الطبري: " يسَّر ذلك عليكم إذا كنتم غيرَ مستطيعي الطوْل للحرائر، لأنكم خُلِقتم ضعفاء عجزةً عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العَنَت على أنفسكم، ولم تجدُوا طولا لحرة، لئلا تزنوا، لقلّة صبركم على ترك جماع النساء"جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م، ج٨، ٢١٥ص.

[٥](التين: ٤)..

٢. دور تزكية الأنفس في الاستقرار والرفاه:

تزكية الأنفس هي عملية بناء داخلية تُؤثر بشكل مباشر على الاستقرار الفردي والمجتمعي والرفاه ، ولابد من تسليط الضوء على الآتي:

- **الاستقرار النفسي** :النفس المطمئنة والراضية هي أساس الاستقرار، وذلك عندما تكون النفس متصالحة مع ذاتها ومع خالقها، تتحقق الطمأنينة التي تُبعد القلق، الاكتئاب، والاضطرابات النفسية قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [١]، وفي هذا قال القرطبي: " أَيْ تَسْكُنُ وَتَسْتَأْنِسُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فَتَطْمَئِنُّ، قَالَ: أَيْ وَهُمْ تَطْمَئِنُّ قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم"[٢]
- **الأمن الأخلاقي:** تزكية الأنفس تُؤدي إلى ترسيخ القيم الأخلاقية مثل الصدق، الأمانة، العدل، والإحسان. هذه القيم هي صمام أمان للمجتمع، وتُساهم في تقليل الجريمة والفساد، مما يُعزز الأمن والاستقرار الاجتماعي، ومن هذه القيم قوله تعالى: " وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ"[٣] ، وتُعد هذه الآية قريبة جدًا من المعنى المطلوب، وذلك لأنها:

- تُرَسِّخ مفهوم العدل: "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ"، وهو أساس القيم الأخلاقية.
- تُحذر من الفساد: "وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ"، وهو ما يمنع من الجريمة والفساد، ويُساهم في استقرار المجتمع وأمنه.

إن الآية تربط بشكل مباشر بين إقامة العدل (الصدق والأمانة) وبين استقامة المجتمع وعدم فساده، وهذا هو جوهر ما ذكرته.

([١])الرعد: ٢٨.

([٢])الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، ج٩، ٣١٥ص.

([٣])"الرحمن: ٩"،.

- **الرفاه الروحي والمعنوي** :الرفاه لا يقتصر على الجانب المادي، بل يشمل الرفاه الروحي والمعنوي. النفس المزكاة تجد سعادتها في القرب من الله، وفي العطاء، وفي الإحساس بالمعنى والهدف في الحياة، حتى لو قلّت حظوظها المادية.

إن هذا الرفاه الروحي هو مصدر قوة لا ينضب، و**قال تعالى:** "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً" [1]؛ تُجسد هذه الآية المعنى المطلوب بشكل مباشر:

- "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا... وَهُوَ مُؤْمِنٌ": هذا هو جوهر تزكية النفس، فالعمل الصالح والإيمان يمثلان أساس الرفاه الروحي.
- "فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً": هذا هو المقصود بالرفاه الروحي والمعنوي. والحياة الطيبة هنا لا تعني بالضرورة الثراء المادي، بل هي حالة من السكينة، الرضا، الطمأنينة، والإحساس بالمعنى في الحياة، وهي نتاج طبيعي للإيمان والعمل الصالح.

فالآية تؤكد أن السعادة الحقيقية والرفاه لا يُقاسان بالمال، بل بجودة الحياة الروحية والنفسية، وقيل الأصل فيها: " هي القناعة والرضا بما قسم الله"[2]

- **بناء الفرد الفاعل:** الفرد الذي يُزكي نفسه يكون أكثر قدرة على العطاء والإيجابية في مجتمعه. فهو يتصف بالانضباط، المسؤولية، والمبادرة، مما ينعكس إيجابًا على الإنتاجية والتنمية المستدامة.

وتُوضح أن تزكية النفس التي هي أساس صفات المتقين تُؤدي إلى صفات عملية تُحوّل الفرد إلى عضو فاعل وإيجابي:

١. "يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ": تُجسّد العطاء والمبادرة في كل الظروف.
٢. "الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ": تُعبر عن الانضباط وضبط النفس.

([1])"النحل: ٩٧".

([2])الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي
الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٢ م، ج٦، ص٤٠.

٣. "وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ": تُبين المسؤولية الاجتماعية والإيجابية في التعامل مع الآخرين.

٤. هذه الصفات، التي هي ثمرة مباشرة للتقوى، تُشكّل أساس بناء الفرد الفاعل القادر على المساهمة في مجتمعه.

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [١] ؛ إذ تُعد هذه الآيات قريبة جدًا من المعنى المطلوب، وإن الإنفاق في السراء والضراء إذ يُثني الله على الذين ينفقون في سبيل الخير والعطاء، سواء في أوقات الوفرة والغنى، أو في أوقات الشدة والقلة. هذا الإنفاق لا يتوقف على الظروف، بل هو دائم في كل الأحوال، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، إذ يمدح الله "الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس"، وهذا يعني أن من يكبح غضبه ويعفو عمن أساء إليه، فله من الله ثواب عظيم. ولقد قال عمر بن الخطاب: "من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون". إن كظم الغيظ والعفو من الصفات التي دعا إليها الإسلام ووعد عليها بالأجر[٢].

ومما تقدم يهدف مفهوم الأنفس في القرآن إلى فهم الذات الإنسانية بجميع أبعادها الروحية والنفسية؛ فالقرآن يربط بشكل وثيق بين تزكية النفس وسلامة المجتمع، ويُقدمها كعملية بناء

([١])(آل عمران: ١٣٣-١٣٤).

([٢])وقال ابن عباس فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ" في العسر واليسر يعنى في قِلَّتِهِ وَكَثْرَتِهِ وَقِيلَ فِي حَالِ السُّرُورِ وَالْغَمِّ لَا يَقْطَعُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ إنْفَاقِهِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ فَمَدَحَ الْمُنْفِقِينَ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ فَمَدَحَ مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَعَفَا عَمَّنْ اجْتَرَمَ إلَيْهِ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْ خَافَ اللَّهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرَ مَا تَرَوْنَ وَكَظْمُ الْغَيْظِ وَالْعَفْوُ مَنْدُوبٌ إلَيْهِمَا مَوْعُودٌ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِمَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى قَوْله تَعَالَى وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا فِيهِ حَضٌّ عَلَى الْجِهَادِ مِنْ حَيْثُ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ فِيهِ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى"أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ج٢، ٣٢٥.

داخلية تُؤدي إلى الاستقرار والرفاه. تزكية النفس تُرسخ القيم الأخلاقية مثل الصدق والعدل، مما يُقلل الجريمة والفساد ويُعزز الأمن الاجتماعي. كما أنها تُثمر استقرارًا نفسيًا وطمأنينة عبر القرب من الله، وتمنح الفرد رفاهًا روحيًا ومعنويًا يتجاوز حدود الماديات. إضافة إلى ذلك، فإن النفس المزكاة تُشكل أساسًا لبناء الفرد الفاعل في مجتمعه، القادر على العطاء والإيجابية، مما يُسهم في تحقيق التنمية المستدامة والازدهار.

المبحث الثاني
مفهوم الآفاق في المنظور القرآني

الْآفَاقُ في اللغة: "النَّوَاحِي وَالْأَطْرَافُ، وَآفَاقُ الْبَيْتِ مِنْ بُيُوتِ الْأَعْرَابِ: نَوَاحِيهِ دُونَ سَمْكِهِ. وَأَنْشَدَ يَصِفُ الْخِلَالَ"[1]، وكذلك يشمل مفهوم "الآفاق" كل ما هو خارج عن الذات الإنسانية؛ الكون الفسيح، الظواهر الطبيعية، المجتمعات البشرية، التاريخ، والقوانين الكونية التي تحكم هذا الوجود، والقرآن يدعو الإنسان إلى التفكر في الآفاق واستكشافها كسبيل لتعميق الإيمان، وتسخير الكون لصالحه، وبناء الحضارة.

١. دلالات "الآفاق" في القرآن الكريم:

- **الكون كآية ودليل** :الآفاق هي ميدان للتفكر في عظمة الخالق وقدرته. كل ظاهرة كونية، من تعاقب الليل والنهار، إلى حركة الكواكب، إلى خلق الحيوان والنبات، هي آية تُشير إلى وجود الله ووحدانيته. "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"[2] .

(١)معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج١، ١١٤.

(٢)(فصلت: ٥٣).

هناك ثلاثة أقوال رئيسية في تفسير قوله تعالى "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ":

القول الأول: أن الآيات هي علامات صدق نبوة الرسول محمد ﷺ، مثل الأحداث التي أخبر عنها قبل وقوعها، كالفتن والحروب وانتصار المسلمين على الروم والفرس. هذه الأحداث تثبت أن ما قاله حق[١].

القول الثاني: أن الآيات هي دلائل قدرة الله في الكون. ففي "الآفاق" نرى آثاره في خلق السماوات والأرض، وفي "الأنفس" نرى آثاره في خلق الإنسان وتطوره من نطفة إلى إنسان عاقل. هذه الآيات تدل على أن الله هو الحق، وأن ما يُعبد من دونه باطل[٢].

القول الثالث: أن المقصود بـ"الآفاق" هو انتشار دعوة النبي محمد ﷺ وانتصاره على الناس، و"الأنفس" هو ظهور سلطانه عليهم. ويرى البعض أن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب. [٣].

- **البيئة المسخرة** :القرآن يُعلن أن الكون بكل ما فيه مُسخر لخدمة الإنسان، ليس تسخيرًا قهريًا، بل تسخيرًا يستدعي الشكر والمسؤولية، وقَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ الجاثية: ١٣ [٤]، هذا التسخير يحث على العلم والبحث والاكتشاف.

❖ **وفيها إرشادات وهي على نوعين**[٥]:

➢ أولا: تجد إرشاده تعالى لأمر ونهي وخبر إلى التشريع أو لعرف كما تقدم.

➢ ثانيا: استخراج الأشياء التي تنفع ، ويعمل الفكر في الاستفادة منها.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ، ج٤، ص٤٧.

(٢)ينظر: المصدر نفسه.

(٣)ينظر: المصدر نفسه.

(٤)(الجاثية: ١٣).

(٥)القواعد الحسان لتفسير القرآن، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩ م، ص٧٠

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر، وفيها:
أ. يُركز هذا النوع على توجيهات القرآن التي تتناول المسائل العقائدية والتشريعية.
ب. هو محور الحديث، إذ يحثّ القرآن في العديد من آياته على التأمل في كيفية خلق السماوات والأرض، والنظر في كل ما أودعه الله فيهما من مخلوقات.. [1]

فإنه سخرها لمصالح الناس ومنافعهم، وأنزل الحديد لما فيه من بأس شديد فقال: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ" [2]؛ فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها[3].

- **المجتمع والتاريخ البشري** :الآفاق تشمل أيضًا الظواهر الاجتماعية والتاريخية. القرآن يُقدم قصص الأمم السابقة وعبر التاريخ كـ"آيات" يجب على الإنسان أن يتعلم منها، ويُبين سنن الله في قيام الحضارات وانهيارها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي

([1])القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص٧٠.
([2])(الجاثية: ١٣).
([3])وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أبقيت؟، وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ ، وما أفادنا هذا الفكر أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به، وهذا النوع قد أكثر منه أهل العلم. وكلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب، وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما، ينظر: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، ج٩، ٣١٥ص.

ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [1]، **وقيل:** في اللغة، يُقصد بكلمة "سُنَن" المسار المتبع أو النهج الصحيح، فهي ترمز إلى الاستقامة وعدم الانحراف.[2]

إن كلمة انْظُرُوا" تربط بين السير والنظر، بمعنى أن السير ليس هدفًا بحد ذاته، بل وسيلة للتأمل والاعتبار. فالأمر هنا هو السير بقصد النظر في العبر، وليس كرحلة غافلة، "فَانْظُرُوا" و "ثُمَّ انْظُرُوا" يُشير إلى تربط بين السير والنظر، بمعنى أن السير ليس هدفًا بحد ذاته، بل وسيلة للتأمل والاعتبار. فالأمر هنا هو السير بقصد النظر في العبر، وليس كرحلة غافلة، والفائدة من "ثُمَّ" في قوله تعالى "ثُمَّ انْظُرُوا" فيُفهم منه إباحة السفر لأغراض دنيوية مثل التجارة، مع وجوب التأمل في مصير الأمم السابقة وآثارهم. وتأتي كلمة "ثُمَّ" لبيان الفرق الكبير بين الواجب (النظر والاعتبار) والمباح (السفر للتجارة)[3].

- **مصدر العلم والمعرفة** :الآفاق هي المنبع الأساسي للعلم التجريبي والاستكشافي. دعوة القرآن للتفكر والتدبر في خلق السماوات والأرض، وفي الظواهر الطبيعية، هي دعوة للعلم والبحث العلمي الذي يُفضي إلى معرفة القوانين الكونية وتسخيرها؛ تسخير الكون: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ وما هي إلا دعوة واضحة للبحث والاكتشاف، وكذلك التفكر

([1])(آل عمران: ١٣٧).

([2])" قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ السنّة في كلام العرب الطريق المستقيم وفلان على السنّة أي على الطريق المستقيم لا يميل إلى شيء من الأهواء"،إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيممنشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ، ص ١٨١.

([3])وقيل: جعل النظر مسببا عن السير في قوله {فَانْظُرُوا} فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ثم انظروا ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: {ثُمَّ انْظُرُوا} فمعناها: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ "ثم" لتباعد ما بين الواجب والمباحالفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢،ص ١٣١.

والعلم: "لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" تربط بين تسخير الكون ودراسته وبين التفكر الذي يُفضي إلى معرفة هذه القوانين[١].

٢. دور استكشاف الآفاق في الاستقرار والرفاه:

استكشاف الآفاق والتعامل معها بوعي ومسؤولية يُساهم في تحقيق الاستقرار والرفاه على النحو الآتي:

- **الاستقرار البيئي** :الفهم القرآني للآفاق يُحفز الإنسان على التعامل المسؤول مع البيئة وعدم الإفساد فيها، مما يُؤدي إلى استقرار بيئي يُحافظ على الموارد للأجيال القادمة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٢]، وهذا يعني تجنب المعاصي والشرك بعد وصول الرسل، إذ يجب عليكم الكف عن ممارسة المعاصي والشرك، خاصة بعدما أنعم الله عليكم بإرسال الرسل. فالتزامكم بهذا الطريق هو "خير لكم". [٣].
- **التراكم المعرفي والحضاري** :التفكر في الآفاق يُؤدي إلى تراكم المعرفة وتطور العلوم، مما يُسهم في بناء حضارة مزدهرة تُواكب التحديات وتُقدم الحلول لمشكلات البشرية. هذا التراكم المعرفي هو أساس التطور والاستقرار الحضاري، ومن هذا المعنى الذي يشير إلى أهمية العلم قال تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

---

(١) ينظر: معالم التنزيل، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م)ص٥٩.

(٢)(الأعراف: ٥٦).

(٣)ويعني هذا لا تعملوا فيها بالمعاصي والشِّرك بعدما جاءكم الرّسل:"ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ"، ونحوه كثير، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (المتوفى: ٢٠٠هـ)، قدمت له وحققته: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩، ص١١٥.

أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[1] ؛ إذ تُعتبر هذه الآية أساسية في الإشارة إلى أهمية المعرفة، وذلك لأنها:

- تُسلط الضوء على قيمة العلم: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" تُبين أن المعرفة كانت أول ما ميز الإنسان ومكنه من خلافة الأرض.
- تُشير إلى أن المعرفة هي أساس التمكين: "قَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ"، فالعلم هو الأداة التي تمكن الإنسان من التعامل مع الكون وفهم مكوناته، وهذه الآية تُرسخ فكرة أن التراكم المعرفي هو حجر الزاوية الذي مكن الإنسان من التطور الحضاري وقيادة الكون، وهو ما يتوافق مع المعنى المطلوب.

يمكن تصنيف الناس في تلقي العلم على ثلاثة أنواع، على غرار أنواع الأرض التي يصيبها المطر[2]:

النوع الأول: كالأرض الخصبة التي تُنبت وتُخزّن الماء، وهم الذين يفهمون العلم ويعملون به، ثم يُعلّمونه لغيرهم، فينتفعون وينفعون.

النوع الثاني: كالأرض التي لا تُنبت ولكنها تحتفظ بالماء، وهم الذين يحفظون العلم دون فهم عميق أو عمل به، ولكنهم ينقلونه إلى من هو أهلٌ له، فيكونون بذلك سببًا في نفع الآخرين.

([1])(البقرة: ٣١).

([2])وقال النووي: " وَالْعِلْمُ فَيَحْفَظُهُ فَيَحْيَا قَلْبُهُ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ غَيْرَهُ فَيَنْتَفِعُ وَيَنْفَعُ وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ مالا تَقْبَلُ الِانْتِفَاعَ فِي نَفْسِهَا لَكِنْ فِيهَا فَائِدَةٌ وَهِيَ إِمْسَاكُ الْمَاءِ لِغَيْرِهَا فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ وَالدَّوَابُّ وَكَذَا النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ لَكِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ أَفْهَامٌ ثَاقِبَةٌ وَلَا رُسُوخَ لَهُمْ فِي الْعَقْلِ يَسْتَنْبِطُونَ بِهِ الْمَعَانِيَ وَالْأَحْكَامَ وَلَيْسَ عِنْدَهُمُ اجْتِهَادٌ فِي الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَهُمْ يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يَأْتِيَ طَالِبٌ مُحْتَاجٌ مُتَعَطِّشٌ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَهْلٌ لِلنَّفْعِ وَالِانْتِفَاعِ فَيَأْخُذَهُ مِنْهُمْ فَيَنْتَفِعَ بِهِ فَهَؤُلَاءِ نَفَعُوا بِمَا بَلَغَهُمْ وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْأَرْضِ السِّبَاخُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ وَنَحْوُهَا فَهِيَ لَا تَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ وَلَا تُمْسِكُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهَا غَيْرُهَا وَكَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ لَيْسَتْ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ وَلَا أَفْهَامٌ وَاعِيَةٌ فَإِذَا سَمِعُوا الْعِلْمَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلَا يَحْفَظُونَهُ لِنَفْعِ غَيْرِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعِلْمِ مِنْهَا ضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَمِنْهَا فَضْلُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَشِدَّةُ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا وَذَمُّ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْعِلْمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ(، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢، ج١٥، ص٤٨.

النوع الثالث: كالأرض السبخة التي لا تُنبت ولا تُمسك الماء، وهم الذين لا يستفيدون من العلم ولا يحفظونه لينفعوا به غيرهم.

- **الأمن الجماعي** :فهم سنن الله في المجتمعات يُساعد على بناء أنظمة اجتماعية وسياسية عادلة تُحقق الأمن والاستقرار الجماعي، وتُجنب الصراعات والنزاعات التي تُهدد الرفاه العام، ومن هذا المعنى قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨ ﴾[1] ، وهذه الآية تُجسد المعنى بشكل دقيق، إذ تُبين أن:

- بناء أنظمة عادلة: "كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ"، وهذا هو أساس بناء أي نظام اجتماعي وسياسي يُحقق العدل.
- تجنب الصراعات: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا"، وهذا تحذير صريح من الظلم الذي يُولّد العداوة والصراعات.
- تحقيق الأمن والاستقرار: "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ"، فإقامة العدل هي الطريق الأقرب لتقوى الله، وهي ما يُثمر الأمن والاستقرار الجماعي.

فالعدل أساس الأمن والسلام وبه تقوم الأمم ، وعكس ذلك يكون الجرم الذي يدفع أهله إلى الهلاك[2].

([1])(المائدة: ٨).

([2])معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى – مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ج٢،ص ٢٧٧.

المبحث الثالث

التكامل بين الأنفس، والآفاق،ودوره في تعزيز الاستقرار ،والرفاه

إن الفهم القرآني لمفهومي "الأنفس" و"الآفاق" لا يُقدمهما ككيانين منفصلين، بل كجانبين متكاملين ومتفاعلين يُشكلان حلقة واحدة تُفضي إلى تحقيق الاستقرار والرفاه. الآية الجامعة في قوله تعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" [1] تُجسد هذا التكامل بوضوح، وهو بحسب الآتي:

- **تأثير الأنفس على الآفاق** :النفس المزكاة، المستقرة، والواعية هي التي تستطيع أن تتعامل مع الآفاق بمسؤولية وإيجابية؛ فالإنسان الصالح يُصلح في الأرض ولا يُفسد، ويُسخر الكون لمصلحة البشرية جمعاء، بعيدًا عن الأنانية والجشع. القلوب المريضة أو النفوس الفاسدة تُؤدي إلى الفساد في الأرض والتخريب، قال تعالى: "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا"[2] ؛ تُقدم هذه الآية الكريمة مثالًا بلاغيًا بديعًا يربط بشكل مباشر بين صلاح النفس وفسادها وبين صلاح العالم الخارجي وفساده:

  - "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ": يُشبه النفس المزكاة، المستقرة، والواعية.
  - نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ": تُشير إلى الثمار الطيبة والأثر الإيجابي الذي تُحدثه النفس الصالحة في الكون. فالإنسان الصالح يُصلح في الأرض ويُسخرها لخير البشرية.
  - وَالَّذِي خَبُثَ": يُشبه النفس الفاسدة والمريضة.
  - لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا": تُبين أن هذه النفس لا تُثمر إلا ضررًا وفسادًا في الأرض، نتيجة لأنانية وجشع أصحابها.

([1])(فصلت: ٥٣).

([2])(الأعراف: ٥٨).

النوع الأول: مثال للمؤمنين ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للمؤمنين بالأرض الطيبة (الخصبة)، فإذا نزل عليها المطر، نمت وأثمرت بإذن ربها، فعم نفعها. هذا يُشبه المؤمن الذي يستفيد من الوحي والهدى في حياته. [١]

النوع الثاني: مثال للكفار وفي المقابل، شبه الله الكافر بالأرض السبخة (المالحة)، التي إذا نزل عليها المطر، لا تُخرج إلا نباتاً قليلاً وضعيفاً، لا فائدة منه، وهذا يُشبه الكافر الذي لا يتأثر بالوحي والهدى، فلا يستفيد منه[٢] ، وبذلك، تُجسد الآية بوضوح أن صلاح الباطن هو أساس صلاح الظاهر، وأن النفس المزكاة هي التي تُعمر الأرض بالخير، بينما النفس الفاسدة تُؤدي إلى الفساد والتخريب [٣]

- **تأثير الآفاق على الأنفس** :التفكر في عظمة الآفاق يُعزز الإيمان في النفس، ويُقوي اليقين بالله، مما يُثمر استقرارًا روحيًا. كما أن تسخير موارد الكون يُوفر الرفاه المادي الذي يُمكن الإنسان من التفرغ للعبادة والتزكية، ويُساعده على العيش بكرامة. [٤]

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

([١]) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج٢، ص٤٣.

([٢]) ينظر: المصدر نفسه .

([٣])وقيل: " العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه" إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة – بيروت، ج١، ص٢.

([٤])كشف الكربة في وصف أهل الغربة (وهو مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي)زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة ، ط٢، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م. ، ص٣٣٢

هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [1]؛ إذ تُعد هذه الآيات هي الأقرب والأكثر شمولًا للمعنى المطلوب، حيث تُوضح العلاقة بين التأمل في الكون وتأثير ذلك على النفس:

- "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: تُشير إلى عظمة الآفاق وضرورة التفكر فيها.
- "لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" :تُبين أن هذا التفكر ليس عبثًا، بل هو دليل على قدرة الله وحكمته، مما يُعزز الإيمان واليقين في النفس.
- "وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : تُؤكد على أن هذا التفكر هو عمل عبادي يُقوّي النفس ويُثمر استقرارًا روحيًا.
- "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا" :تُظهر نتيجة هذا التفكر، وهي اليقين بأن للكون هدفًا وغائية، مما يملأ النفس بالمعنى والطمأنينة [2] .

([1])(آل عمران: ١٩٠-١٩١)

([2])وقد ورد في هذه الآية : عن أم المؤمنين عائِشَةَ فَالَتْ: لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تزور فقَالَ أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا قَالَ فَقَالَتْ دَعُونَا من بَطَالَتِكُمْ هَذِهِ قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي" قُلْتُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ قربك وَأحب مَا يَسُرك قَالَتْ فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ قَالَتْ وَكَانَ جَالِسا فَلم يزل يبكي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بل لحيته قَالَت ثمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبك وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: "أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ} " الْآيَة كلهَا"[2].

موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، ص١٤٠.

الخاتمة

بهدي من هذه الدراسة إذ يمكننا أن نضع أهم النتائج التي توصلنا إليها وهي بحسب الآتي:

١. لقد أظهرت هذه الدراسة التحليلية أن مفهومي "**الأنفس**" و"**الآفاق**" في المنظور القرآني يُشكلان أساسًا نظريًا وعمليًا عميقًا لتحقيق **الاستقرار والرفاه** في حياة الفرد والمجتمع. فالقرآن يُقدم رؤية متكاملة لا تُفصل بين صلاح الإنسان الباطني "تزكية الأنفس"، وبين تفاعله الإيجابي مع عالمه الخارجي "استكشاف الآفاق وتسخيرها".
٢. الاستقرار الذي يدعو إليه القرآن ليس مجرد غياب الاضطراب، بل هو حالة من الطمأنينة النفسية، والأمن الاجتماعي، والتوازن البيئي. أما الرفاه، فهو ليس مجرد وفرة مادية، بل هو سعادة شاملة تُغذي الروح والجسد معًا، وتُحقق للإنسان كرامته ومعناه في الوجود.
٣. إن تطبيق هذا المفهوم القرآني الشامل، الذي يربط بين العلم والإيمان، والروح والمادة، والفرد والجماعة، يُمكن أن يُقدم خارطة طريق للبشرية نحو بناء حضارات قوية ومزدهرة، تُحقق الأمن والسعادة لأفرادها، وتُسهم في إعمار الأرض بالخير والعدل.

المصادر والمراجع

١. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ج٢، ٣٢٥.
٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة – بيروت، ج١، ص٢.
٣. إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ، ج٤، ص٤٧.

٤. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (المتوفى: ٢٠٠هـ)، قدمت له وحققته: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩، ص١١٥.

٥. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ) المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، ص٢٤٠.

٦. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ، ج٤، ص٧١١.

٧. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، ج٨، ٢١٥ص.

٨. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ج٩، ٣١٥ص.

٩. الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢،ص ١٣١.

١٠. القواعد الحسان لتفسير القرآن، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩ م، ص٧٠

١١. كشف الكربة في وصف أهل الغربة (وهو مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي)زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة ، ط٢، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. ، ص٣٣٢

١٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي

١٣. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص٣١٦.

١٤. معالم التنزيل، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)ص٥٩.

١٥. معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى – مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ج٢،ص ٢٧٧.
١٦. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج١، ١١٤.
١٧. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢: ٢٣/٢.
١٨. موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، ص١٤٠.

Sources and References

1. Ahkam al-Qur'an, Ahmad ibn Ali Abu Bakr al-Razi al-Jassas al-Hanafi (d. 370 AH), edited by Muhammad Sadiq al-Qamhawi - member of the Qur'an Review Committee at al-Azhar al-Sharif, Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, 1405 AH, vol. 2, p. 325.
2. I'rab al-Qur'an, Abu Ja'far al-Nahhas Ahmad ibn Muhammad ibn Ismail ibn Yunus al-Muradi al-Nahwi (d. 338 AH), annotated and commented on by Abd al-Mun'im Khalil Ibrahim, published by Muhammad Ali Baydoun, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, first edition, 1421 AH, vol. 4, p. 47.
3. Al-Tasrif li-Tafsir al-Qur'an min ... 6. Jami' al-Bayan fi Ta'wil al-Qur'an, Muhammad ibn Jarir ibn Yazid ibn Kathir ibn Ghalib al-Amili, Abu Ja'far al-Tabari (d. 310 AH), edited by Ahmad Muhammad Shakir, Dar al-Risala, 1st ed., 1420 AH - 2000 AD, vol. 8, 215 pp.
4. Jami' li Ahkam al-Qur'an = Tafsir al-Qurtubi, Abu Abdullah Muhammad ibn Ahmad ibn Abi Bakr ibn Farah al-Ansari al-Khazraji Shams al-Din al-Qurtubi (d. 671 AH), edited by Ahmad al-Bardouni and Ibrahim Atfeesh, Dar al-Kutub al-Masriyyah - Cairo, 2nd ed., 1384 AH - 1964 AD, vol. 9, 315 pp.
5. Al-Fasl wa al-Wasl fi al-Qur'an al-Karim, Munir Sultan, Mansha'at al-Ma'arif, Alexandria, 2nd ed., p. 131.

6. Al-Qawa'id al-Hasan li-Tafsir al-Qur'an, Abu Abdullah, Abd al-Rahman ibn Nasser ibn Abdullah ibn Nasser ibn Hamad Al Sa'di (d. 1376 AH), Maktabat al-Rushd, Riyadh, 1st ed., 1999 AD, p. 70.
7. Al-Kashf wa al-Bayan 'an Tafsir al-Qur'an, Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim al-Tha'labi, Abu Ishaq (d. 427 AH), edited by Imam Abu Muhammad ibn Ashur, reviewed and proofread by Professor Nazir al-Sa'idi.
8. Mukhtar al-Sihah, Zayn al-Din Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Bakr ibn Abd al-Qadir al-Hanafi al-Razi (d. 666 AH), edited by Yusuf al-Sheikh Muhammad, Al-Maktaba al-Asriya - Dar al-Namuthajiyah, Beirut - Sidon, 5th edition, 1420 AH / 1999 AD, p. 316.
9. The Meanings of the Qur'an, Abu Ja'far al-Nahhas Ahmad ibn Muhammad (d. 338 AH), edited by Muhammad Ali al-Sabuni, Umm al-Qura University - Makkah, 1st ed., 1409 AH, vol. 2, p. 277.
10. Dictionary of Language Standards, Ahmad ibn Faris ibn Zakariya al-Qazwini al-Razi, Abu al-Husayn (d. 395 AH), edited by Abd al-Salam Muhammad Harun, Dar al-Fikr, 1979 AD, vol. 1, p. 114.
11. Resources of the Thirsty to the Additions of Ibn Hibban, Abu al-Hasan Nur al-Din Ali ibn Abi Bakr ibn Sulayman al-Haythami (d. 807 AH), edited by Muhammad Abd al-Razzaq Hamza, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, p. 140.
12. Publisher: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1st ed., 2002 AD, vol. 6, p. 40.
13. Al-Minhaj: A Commentary on Sahih Muslim ibn al-Hajjaj, Abu Zakariya Muhyi al-Din Yahya ibn Sharaf al-Nawawi (d. 676 AH), Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, 2nd ed., 1392: 2/23.
14. Ma'alim al-Tanzil, al-Baghawi, Abu Muhammad al-Husayn ibn Mas'ud, edited by Muhammad Abdullah al-Nimr, Uthman Juma'a Damiriyah, and Sulayman Muslim al-Harsh, (Dar Taybah for Publishing and Distribution, 4th edition, 1417 AH - 1997 CE), p. 59.
15. Ihya' Ulum al-Din, Abu Hamid Muhammad ibn Muhammad al-Ghazali al-Tusi (d. 505 AH), Dar al-Ma'rifah, Beirut, vol. 1, p. 2.

16. Kashf al-Darbah fi Wathsif Ahl al-Gharbah (printed as part of the collected letters of al-Hafiz Ibn Rajab al-Hanbali), Zayn al-Din Abd al-Rahman ibn Ahmad ibn Rajab ibn al-Hasan al-Salami al-Baghdadi, then al-Dimashqi al-Hanbali (d. 795 AH), studied and edited by Abu Mus'ab Tal'at ibn Fu'ad al-Halwani, Dar al-Faruq al-Hadithah for Printing, 2nd edition, 1424 AH - 2003 CE, p. 332